دوت القاعة بالتصفيق والتحية عند الرحيل وتدافعت الجموع يريد تحية الجماهير التي اسكرتها اغانيه العذبة ، واسدلت الستار ، فانسل عبدالرحيم وحده وخرج من باب المسرح الخلفي واصداء الليلة العظيمة ترن في اعوار نفسه وتشرح صدره وتجعل روحه تهيم في عوالم من الرضا والغبطة .

وانساب في جوف الليل كالطيف وراح الهواء البارد يداعب وجهه فيزيد في تألق الاشراق الذي انتشر بين جوانحه والسكينة التي استقرت في راسه والسرور الذي يغشاه ، كان مزهوا بالشهرة التي بلغها واعجاب الناس به والتكريم الذي يلقاه في كل مكان .

وفي مثل لمح البصر طاف بذهنه بيته الفاخر وزوجته الجميلة وانداده الاغراء وسياراته السوداء الفخمة التي تنتظره امام باب المسرح ورصيد حسابه الذي يتضخم في البنوك يوما بعد يوم فراح يستنشق الهواء في طمأنينة ويوفره في راحة ، واستشعر رغبة في ان يغني لنفسه واذا باصوات تتحاور في اعواره تهتف : .. انت عبقري ... عبقري حقا ، .

ورفع راسه وقد تملكه الزهو وشاعت في جوانحه بهجة روحية جعلته يرضى عن وجوده ، ويرى في كل ما يمد اليه عينه جمالا تنشى به ذاته التي فاضت سعادتها حتى كادت تغمر كل شيء .

وسار يتلفت كالمحور ، وهو ينعم بالسرور ، واذا بعينيه تقعان على صبي صغير ، نام الى جدار ، لا يستر جسده الضاوي الا سمل بالية وخرقة ممزقة تتناثر عليها هنا وهناك اشكال غير منتظمة من الطين ، وفي مثل لمح البصر اشاح بوجهه عن الصبي واطلق في طريقه ، بيد أن منظر الصبي الصغير احتل صفحة راسه وعكر صفوه لحظات ، فقد راحت مشاعر الشفقة ترحف الى صدره لتنحسر عنه موجات الغبطة والرضا والسرور

وانساب في طريقه وسمع اذنيه صوت زمارة تسري في سكون الليل فاصاخ سمعه ووسع من خطوه وسار

ناحية الصوت حتى اذا ما اقترب منه فرع مسامعه صوت أجش يغني على الربابة وبلغ صاحب الصوت فألفاه رجلا يرتدي جلبابا مخططا فوقه حاكمة ممزقة ، يزر منها مرقعاه وتعرس في وجهه فالق آثار الجدري قد انتشر في صفحته وابيضت عيناه ، يبدو عليه أنه يجاوز الخمسين ، كان يسبل بكل ماعنده من طاقات .

ورن في أعماق عبد الرحمن صوت يقول في انكار وشفقة وخوف : « انه يسبل بصره ! » وتسمر عبد الرحمن في مكانه لما راح الصوت يهمس في ضمير « انت تعمى وهو يغني » وانقلب الهمس الى صراخ .

وراحت الافكار تتدفق الى راس عبدالرحمن : انت لم تخلق حنجرتك .. صوتك الجميل لا فضل لك فيه.. انه هبة .. المال الذي جمعته ليس لك وحدك .. لك شريك فيه ، لا ، انه مالي ، جمعته بالجهد والكفاح وسهر الليالي وعرق الجبين .

وعاد يتفرس في وجه الرجل الاعمى الذي كان يتسول بغنائه ، فاشتد خفقان قلبه ، وراح صوت ضميره يقول : « كان من الممكن ان تكون مثله ، لولا ان لطف الله بك ... المال الذي جمعته لا فضل لك فيه ، لك فيه شريك ، ومن شريكي ؟! الله شريكك .. بل انه مال الله ، استخلفك فيه للناس كلهم حق فيه » .

ومد يده في جيبه واخرج بعض اوراق مالية ، دسها في يد الرجل الاعمى ، ثم دار على عقبه ليعود الى سيارته التي ينتظره وقد شغل رأسه افكار جديدة ، تمد قلبه بالشفقة والنور .

ونام ليلته وهو سعيد ، وفي الصباح خرج يضرب في ارجاء المدينة وهو يترقب ، كان يبحث بعينيه عن انسان يمد له عونه ، فراى رجلا يرتدي جلبابا قصيرا ، فوقه حاكمة صفراء ، يبدو كانما غمسا في الزيت والشحم ، ووضع على كتفه حبلا متينا واسند ظهره الى جدار ينتظر الفرج ، أن يدعوه أحد ليحمل له حملا ثقيلا .

وسار عبدالرحمن الى الرجل ووضع في يده ورقة مالية ، فاذا باساريره الرجل تنهلل واذا بلسانه يتحرك في فمه ، بيد ان عبد الرحمن لم ينتظر ليسمع ما يقول ، انه وضع من خطوه وسار بعيدا ليبحث عن آخر يعطيه حقه في المال الذي يجود الله به عليه .

وانطلق يتلفت ، فوقعت عيناه على بائع صحف ينهر ابنه الصغير ثم يمسكه من ذراعه ويدفعه بعيدا ، وهو يسبه في حنق ، فاقترب منه وقال له :

ـ لماذا تقسو على الصبي ؟

فقال الرجل في انكسار :

ـ يريد قرشين . من اين سآتي له بالنقود ؟!

فوضع عبد الرحمن يده في جيبه واخرج ورقة مالية ، دفع بها الى الرجل وهو يقول :

ـ خذ واشتر له كل مايشتهيه .

وقبل ان يفيق الرجل من دهشته كان عبد الرحمن قد انسل وذهب بعيدا عن العيون ، ليسمع في أبدي من يفتح

لهم قلبه من الشيوخ والصغار والمساكين بعض المال الذى استخلفه الله فيه .

وفى ذات يوم كان منطلقا بسيارته فى طريق قفر ، كان البرد شديدا والعرق يتصبب من كل مسام جسمه ، ولمح طفلا يرتدى ثيابا بالية ، يدفع امامه عربة بها زجاجات فارغة ، يلتقط انفاسه فى جهد ، والعرق يتساقط من وجهه على الارض ، عدا منه وناداه ، فأقبل الطفل وهو يتلفت فى خوف ، ولما راى الورقة المالية الممدودة اليه اتسعت عيناه رهبة وقال :

ـ لا . لا . لا اريدها .

ووضعها عبد الرحمن فى يده ، بيد أن الطفل القاها على فرع ، وقال وهو يضطرب :

ـ لا ـ لا اريدها

فقال له عبد الرحمن فى حنان :

ـ خذها يا بنى . انها لك

واعادها عبدالرحمن اليه ، وهم بأن يتحرك بسيارته ، الا ان الطفل تعلق بالسيارة وهو يقول :

ـ لا . لا اريدها ـ ارجوك ياسيدى

وتمهل عبد الرحمن وقال فى هدوء :

ـ انها لك

فقال الطفل فى تخاذل :

ـ انا جائع .. اعطنى قرشين ـ هذا كل ما اريده

ووضع عبد الرحمن الورقة المالية فى يده فى رفق وقال :

ـ خذها . ارجوك .

وقبض الطفل على الورقة وهو داهل وانساب عبدالرحمن فى طريقه وهو سعيد .

كان عبدالرحمن يمتلىء نشوة كلما داعبت اذنيه آهات الجمهور ودوى التصفيق ، الا ان تلك النشوة سرعان ما تتبخر وتتلاشى ، اما الصفة التى يحسها كلما اعطى انسانا حقه فى ماله فانها تتغلغل فى سويداء قلبه وتجعله يعيش فى نعيم مقيم وأرضاه انه استبدل سعادة طارئة بسعادة دائمة ترفرف بها الروح .

وجاء نائب مهدم الى بيت عبدالرحمن ودق الجرس وراح يلتقط انفاسه فى جهد ، ومرت لحظات وانفرج الباب عن زوجة عبدالرحمن ، فوقعت عيناها على الرجل وهو يسند قلبه بيده ، ونظرت اليه نظرة تقول فى ضيق : « نعم ! » ولم يأبه الرجل لنظرتها وقال فى صوت خافت :

ـ الاستاذ موجود ؟

ومس سمعه صوت عبد الرحمن يقول فى رقة :

ـ تفضل

فاشرق وجه الرجل بابتسامة ودارت الزوجة على عقبيها وعادت فى البيت وما لبثت أن عادت تسترق السمع فقد رأيتها كثرة الذين يترددون على بيتها فى الايام الاخيرة من ذوى الذلة والمسكنة .

وترامى الى سمعها صوت الرجل المهدم يقول :

ـ قال لي الطبيب : لا بد من أن تأخذ ابرة الذهب وإن تتعذى جيدا وإلا تموت .. ستموت . من اين لي ثمن ابرة الذهب ؟ من اين اجد ما اتغذى به وانا لا اجد ما آكله ! طردوني من العمل لما عرفوا انى مريض بالسل .

وسمعت زوجها يقول :

ـ اطمئن . ربنا موجود .

ومدت رأسها ونظرت فرأت زوجها يضع في يد الرجل شيئا فاستبشرت صبيحة على الرغم من انها زالت الدموع تغسل وجه الرجل ، احست انه يسرق منها حقا من حقوقها وحقوق اولادها.

وخرج الرجل وبين جوانبه بصيص امل وعاد عبد الرحمن الى حيث كانت زوجه وهو مطرق يفكر في ذلك الرجل الذي يهدده فقره بمصير مشئوم، وقال في صوت خافت :

ـ مسكين .

فقالت زوجه في سخرية :

ـ والله نحن المساكين .

فرفع رأسه ونظر اليها في دهش ، وفطنت الى نظرة الانكار التي ترقرقت بها عيناه ، بيد انها لم تحفل بمشاعره وقالت :

ـ انت لا تفكر فينا ولا في أولادك .

فقال في الم كأنما طعن قلبه خنجر :

ـ انا ؟

ـ لو كنت تفكر فينا ما بعت مالك ولصنعت لنا مستقبلنا .

ـ وهل ينقصكم شيء ؟

ـ ماذا فعلت لمستقبلنا ؟ ماذا يكون حالنا لو حدث ـ لا قدر الله ـ لنا حادث .

فقال في ضيق :

ـ لو مت

فقالت في بساطة :

ـ لا قدر الله . لا بد يا عبدالرحمن ان نضمن مستقبل اولادنا .

ـ وهل ينقصهم شيء؟ كلهم في احسن المدارس ، ولا انحل عليهم بشيء . ماذا يمكن ان افعله لهم ولم افعله ؟!

فدنت منه وقالت وهي تضمه اليها

ـ لنشتري لهم شيئا ينفعهم في مستقبلهم بدلا من بعثرة مالك .

ولم يعجبه قولها له : «بعثرة مالك» وهم بان يقول لها : « انا حر في مالي. أنفقه كيف اشاء » الا انه كبت ثورته التي اندلعت في صدره ،وقال :

ـ تريدون ما ترثونه بعد موتي ؟!

فراحت تمسح رأسه بيدها وقالت:

ـ وهل يشقى الآباء الا ليتركوا لابنائهم ما يسعدون به .

ـ اريد لابنائي ان يكدوا وان يسعدوا بعرق جبينهم .

ـ ان كل قطرة دم تجري في عروقهم منا ، ورثوا عنا كل صفاتنا، كل ما فينا من فضائل ونقائص ، ذكاءنا وغباءنا ، فطنتنا وحماقاتنا . فلماذا تريد أن تحرمهم من ثمرة جهدنا . هذا حقهم .

ـ و الله ما أفتح أبدا الذين ينتظرون ما يرتونه .

ـ ومن قال لك انهم ينتظرون ، انهم يعملون ويتمنون ان يصلوا بجهدهم ولكن علينا ان نؤمن لهم الطريق ، ان نجعلهم يشعرون انهم مطمئنون .

ـ وماذا تريدون ان أفعل ؟

ـ ان تشتري لهم ارضا بدلا من بعثرة مالك .

ووجم قولها « بعثرة مالك » وهم بأن يثور ، الا انه مضغ غضبه وهو كاره ، وقال :

ـ ومن يديرها ؟

ـ انت .

ـ انا رجل خلقت لأعمى . لا لأدير ارضا . انا لا اقبل ابدا ان اجني ثمار عرق فلاح فقير !

فقالت في سخرية :

ـ ولماذا تقبل أن تجني ثمار عرق رجال فرقك الموسيقية ؟!

فقال في حدة :

ـ انا اعطيهم اجورهم . انا لا اجني ثمار عرقهم .

ـ وستعطي الفلاح اجره .

ـ هذا يختلف . انا اعمل مع رجال فرقتي في الشتاء والصيف ، في البرد والحر ، أعرق كما يعرقون وانتفض من البرد كما ينتفضون ، اما الفلاح الذي يفلح الارض ، فانا لا أشاركه تعبه .

ـ فلماذا تأخذ انت وحدك جل الايراد ، لماذا ..

ولم يدعها تتم حديثها . بل قال في انفعال :

ـ اني آخذ ربع موهبتي ، ثمن فني . الناس يأتون ليسمعوا غنائي ، يدفعون ما يدفعون وهم راضون ليتمتعوا بصوتي .

وهمس في جوفه هامسا : « ولكن ذلك الصوت لم تخلقه لك فيه شريك » واذا بصوت آخر يقول :

« اني أدفع للناس نصيبهم في كل قرش يرزقني الله به . أؤدي حق مالي .. لا بل مال الله »

واحس انه يتضاءل وقالت زوجه :

ـ اني لنا يا ، ان كنت لا تريد أن تعمل أحدا .

وشغل بالأفكار التي كانت تتدفق الى رأسه عن كل شيء حوله ، فقال في صوت خافت ليلهي المناقشة الدائرة بينه وبين زوجه :

ـ ساري .

وخرج الى الطريق وانطلق على غير هدى يتلفت ، فوجد طفلة صغيرة امامها مشنة بها ليمون ، فذهب الى الطفلة وتناول ليمونة وقال :

ـ بكم ؟

فقالت الطفلة وهي تنظر الى وجهه لتكتشف اثر كلامها فيه :

ـ الليمونة بقرش صاغ .

وتناول خمسا وعشرين ليمونة ووضع في يد الطفلة خمسين قرشا وأولاها ظهره ، فراحت الطفلة تنقل

عليها بين الورقة المالية وظهر عبد الرحمن فدهش، ولما وجدته يبتعد عنها ارتسم على وجهها الفرح الشديد ولم تستطع ان تكتم فرحتها فانطلقت من حولها وقالت في سرور وهي تلوح بالورقة المالية وتشير الى عبد الرحمن الذي ابتعد عنها :

ـ ضحكت على هذا الرجل .

وتبسم عبد الرحمن وهمس « ليت كل الذين يستغلونني كانوا مثلك ! » وراح يفكر فيما كان بينه وبين زوجه ، ان غاية أمانيها أن تملك شيئا يقيها من قلقها حشيتها من المستقبل ، انها لا تستطيع أن تنسى ان عمها هو الذي كفلها بعد موت ابيها وبا طالما قالت له انها تدعو الله في جوف الليل ان يجنب ابناءها الحاجة الى عطف الآخرين !.

وراح يخاطبها فقد ملأت صدورتها الطريق : « انك صديقة الايمان ، كثيرة القلق . هل تعلم ان عمك المال الكثير الذي تركه له ابوه ؟ انفقه فيما لا ينفع وهو الآن فقير . ليت عمك سلح ابنه بالعلم بدل ذلك المال المعدود الذي تركه ! انه لو فعل ما كان هذا حال ابن عمك الآن .. اريد أن أجنب ابنائي مصير ابن عمك العزيز » .

وسمع صوتها في وضوح يقول له « لو سقطنا في الطريق فمن ذا الذي سيأخذ بايدي ابنائنا ؟ ما يحتاج اليه البيت يحرم على الجامع . اتق الله يا عبدالرحمن ولا تبعثر مالك » .

« لا ، لا . انه ليس مالي ، انه مال الله ، وهو قادر على أن يحميه عني الآن » . وراح يحس حجرته في خوف ويفكر فيما يكون عليه حاله لو ان ذلك الصوت ضاع ، وتملكه فزع وراح يدندن ليطمئن على انه ما يزال يملك هبة الله ، وتجاوب صوته في ارجائه عذبا كما كان ، فقال في رضا « للناس كلهم حق فيه »

وعادت تراوده فكرة شراء بيت « ولماذا لا افعل ؟! سيسوق الله الى اناسا لهم حق في هذا المال ، لهم فيه نصيب . ساغدق عليهم في العطاء حتى ترضى نفسي ، وسيرضى ذلك روحي وابائي »

واشترى ارضا وعمرت البيت موجة فرح ، واتفق مع مهندس رشحه له صديق . كان الاتفاق مبلغا دفعه للمهندس بشيك ضل أن يحط على على الورق خطا وكان هذا هو كل ما بينهما من عقود . وفي ذات ليلة عاد الى البيت وهو يحمل رسم البيت المنشود فأخذه ابنه امين وعكف عليه يدرسه ولما انتهى من الفحص والتدقيق دخل على أبيه ممتعض الوجه ، وقال في ثورة :

ـ انا لا اوافق على هذا الرسم .

وسقط الورق ليناقش اباه الا ان عبد الرحمن لم تتفتح نفسه للمناقشة، وقال

ـ لست صغيرا يا نمر . اذهب الى المهندس وناقشه في كل ما تريد ادخاله من تعديلات وذهب امين وعاد وهو غاضب حانق ، وقال لابيه في ثورة

ـ نصيحتي يا ابي الا تتسرع مع هذا الرجل .

ـ لماذا يا أمين ؟

ـ لم ارتح اليه ، طريقته فى النقاش لم تعجبنى .

فقال عبد الرحمن فى حدة ،

ـ حرام يا أمين ان تظلم الناس . اعطه فرصة .

فقال امين فى حدة

ـ يتخرب بيتنا !

فقال عبدالرحمن فى انفعال :

ـ امين ! انا لا اسمح لك بان تجرى وراء عواطفك وان تظلم الناس. الرجل لا غاية له الا خدمتنا .

وخرج امين غاضبا واحس عبدالرحمن ضيقا، فما فاتت بينه وبين ابنه مشادة قبل ان يشرع في بناء البيت ، وكان يستشعر في أعماقه ان ابنه في جانب الحق ، فهو نفسه لم يسترح الى ذلك المهندس بعد ان تكشفت له خيانته في كثير من أفعاله . الا انه ابى أن يجرحه ووطن العزم على أن يتحمل مضايقاته حتى ينتهي من تشييد ذلك البيت الذي بدأ يحس وطأته على روحه .

وراح يغدق بسخاء على العمال ويعطي المهندس كل ما يطلبه وهو على اليقين من انه لا يستحق الاموال التي يأخذها وكان يعلل النفس بانه ما من أحد يستحق من خيانة ما يفيض من حاجته، وانما هي ارزاق .. يرزق الله من يشاء بغير حساب !

وتكدست مواد البناء وأخذ العمل يسير في بطء شديد والاموال تتسرب من بين يدي عبد الرحمن حتى بدأ يحس ضيقا ماليا ، ولم يكن ذلك الضيق يؤديه مثل ذلك الضيق النفسي الذي كان يستشعره عند المشادات التي كانت تشتعل في البيت كل يوم بينه وبين امين وزوجه ، فقد كانا يتهمانه بانه يترك امواله نهبا للمهندس ورجاله الذين تجاوز استغلالهم له كل حد .

وفي ذات يوم دخل امين على ابيه وقال :

— الى متى ستسكت على هذه المهزلة . ارسل المهندس من سرق صنف حديد التسليح في الليل .

وانقبض عبد الرحمن وثارت دماؤه في عروقه ، وأحس رغبة في ان يبطش بأحد وكاد يهم بالثورة على ابنه ولكنه كبح جماح غضبه وقال في هدوء وان كانت اعصابه تتمزق :

— هذا امر يستوجب الشكر .

فقال امين وهو يكاد يثب من المقعد

— اتريدني ان اشكر المهندس لانه يسرقنا ؟!

— هذا امر يستوجب الشكر لله ؛ لانه اعطانا ما يسرقه الناس ولم يحرمنا ويضطرنا الى سرقة الناس .

ولم يستطع امين صبرا ، فقال دون وعي :

— يا للبرود !

واحس عبد الرحمن كان حجرا ضخما يسقط الى قلبه وان كرياءه تمزقت في الاوحال وهم بأن يهجم ويصفع ابنه ، بيد ان امين اسرع من الصفعة وهو يرمي ويريد ، وصاحت الخادم وقالت

— رجل في الخارج يسأل عنك يا سيدي .

فقال لها عبد الرحمن وهو ينهض

— قولي له : تفضل .

ودخل الرجل ، كان ذلك الشاب الذي طرد من عمله بعد المرض الطويل . كان ذاويا ذابلا وكاد نور عينيه ينطفيء وتلاشى الغضب من صدر عبد الرحمن وشاعت فيه رحمة ، فقال للشاب في رقة :

— تفضل يا بني .

فقال الشاب والدموع تنهمر من عينيه :

ـ سامحوني يا سيدي . انا واثق من ذلك ولكن على ان اصارع الموت . قال لي الطبيب : لا بد ان آخذ مريضا من اثر الدهب . آسف يا سيدي ان كنت اثقل عليك .

فقال عبدالرحمن في صدق :

ـ ابدا يا بني .

وبعض عبد الرحمن وذهب ليأتي ببعض المال ، فلما دس يده في جيبه لم يشعر بتلك القوة التي كان يشعرها كلما اعطى ، فقد كان يعطي من مال اعده لتسديد بعض مطالب البيت الجديد ، وعاد الى الشاب ووضع في يده المبلغ وقد ثار القلق بين حواسه .

وخرج الشاب وهو يجر خطاه وأحد عبدالرحمن ينظر اليه وهو شارد . انه كان طليقا يحلق في السموات قبل ان تشده تلك البيت الى الارض . كان ناعم البال ، يشدو شدو البلابل ، فاذا به يصبح قلقا خائفا من غده ، يخشى الروائع التي كانت تهب في منزله في أي وقت . كان يعطي الناس نصيبهم في ماله وهو راضي النفس خفيف الحركة ، فصار يعطيهم والقلق يخفق في كيانه وخطوه ثقيل وعيناه زائغتان لاتستقران على شيء ، فهو لا يعرف الى اين يمد بصره !

وفي ذات يوم همت الزوبعة بينه وبين امين ، قال امين :

ـ الى متى نصبر على هذا اللص ، سرق مواسير الكهرباء وباع أقفال الشقق ومزقها في التراب ..

ودخلت الزوجة وجذبت امين من يده وهي تقول له :

ـ تعال . اهدأ يا بني .

فقال أمين وهو يكاد يشيح بالبكاء :

ـ تعالي اسمعي ماذا يقول الناس عنا . العمال يقولون : لم نر تعميلا مثل هذا التعميل ابدا .

وكادت الدموع تطفر من عيني عبدالرحمن وراح يصرف ابنائه في غيظ وتملكه غضب شديد حتى كاد يضرب ابنه ويخرج ليبحث عن ذلك اللص الذي جعله اضحوكة بين الناس ولكنه راح يراود نفسه ويقنعها أن مال الدنيا كلها لايستحق ان يرتكب مثل هذه الحماقات ، انه عاهد نفسه ان يحتقر المادة ليسعد وكان سعيدا حقا قبل ان يصغي الى روحه التي نجحت في ان تحدثه الى الارض انها سحابة تطوف بحياته سرعان ماتمر

وانتهى البيت ـ وكان لا بد أن ينتهي

ـ بعد أن فر المهندس بكل ماأستطاع ان يسرقه وبعد أن ترك العمل يسير على هواه ، ودخل عبد الرحمن على زوجه وابنائه وقال لهم :

ـ خذوا البيت ودعوا لي تعميلي

واحس كان حملا ثقيلا انزاح عن صدره وان الصدأ الذي وان على روحه قد ذاب وأن النور بدأ ينتشر في كيانه فقد خرج من سجنه وعاد طليقا ليعطي الناس ـ وهو راض ـ نصيبهم في ماله ، بل في مال الله .